

"الأنا" وتمظهر "الآخر"

في نثریات: تحولات فاجعة الماء.*

جدلية "الأنا" و"الآخر" أو "نحن" و"الآخر" من الثنائيات المتداولة في الخطاب الفكري وخاصة النقدي والأدبي لما فيها من المسكوت عنه أو التثديد به، وخاصة عندما يتعلق الأمر بـ "إعادة تشكيل مواقفنا وقيمنا وتعديل سلم أولوياتنا"¹ بما يتناسب مع تاريخنا وحاضرنا وديننا وبطولاتنا.

هناك عربة سياسية واقتصادية وعسكرية تمارس علينا منذ أن فقدنا غرناطة وربما قبل غرناطة منذ معاوية، تمارس من قبل الآخر الظاهر أو المضمّر.

نثریات : تحولات فاجعة الماء

أول تمظهر للآخر يبدأ من صفحة الغلاف الذي طبع في الثلاثي الثاني سنة 2002 للميلاد قبل فاجعة "تسونامي" بأكثر من سنة وهل هذا تنبؤ أم اختراق لحواجز مستقبلية أم هي حالة "الأنا" حينما يسمو بها الروح إلى قمة التعبير.

فأول العتبات في تحولات فاجعة الماء لعبد الحميد شكيل هي :

1- لوحة الكتاب

هذه اللوحة تحتوي على إشارات دالة على مكامن يصعب لمسها، فبالوانها وانحناءات خطوطها وسمتها الذي يمثل حالة صراع من الهيجان والهدوء، وتموج ألوانها في حركة تجسد هول الفاجعة وما يلحقها من خراب ومد للماء وجزر لليابسة الذي يجسده الأبيض المنحصر يسارا وما يعلو المد والجزر من لون الفاجعة لون الدم، هو ما يجعلنا نسقط في شرك دلالة أولية.

أولها نقل العدوى من "الأنا" الكاتبة المعبرة بلسان القلم إلى "الأنا" المجسدة في "الآخر" التي تتمثل في الرسام مبدع لوحة الغلاف الذي أتم بريشته معاناة الكاتب المبدع.

* أقيمت كمحاضرة في الملتقى الدولي حول السرديات بالمركز الجامعي ببيشار 13/12/2005

¹ محمد راتب الحلاق، نحن والآخر "دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر" منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 47

هذه "الأنا" "الآخر" تعتبر أول متلق تعرض لصدمة هذه التحولات فأكمل مسيرة "الأنا" الناطقة دون أن تثبت نفسها في زاوية من زوايا اللوحة، فتوارت وتركت المجال لها أي للأنا الناطقة. وكأن ثنائية "الأنا" عرضة للتحول فتغدو "أنا" واحدة هي الناطقة بالقلم وريشة الرسم فالرسم لا يزاحم الشاعر في البروز من على ظهر الصفحة، وهذا نوع من التسامي والنبيل منه فيكتفي أن يظهر كظل قوي بعد العصر.

2- اللون

للألوان أثر لا يزول وهي ذات علاقة بنفسية المبدع، المتحدث والمتلقي، ولها وظيفة تحل محل اللغة ومحل الكتابة ولهذا وجب ربطها بنفسية المتحدث والمتلقي² وبالوسط الاجتماعي والجغرافي للمبدع.

إن دلالات اللون تختلف من مجتمع لآخر فقد قدس الآسيويون اللون الأصفر واعتد به الهنود في طقوسهم الدينية واتخذة قدماء المصريين رمزا لإله "رع" إله الشمس وكذلك كان شأن الأمازيغ الذين زخرفوا به رايتهم ومناديلهم. أما الأبيض فيحمل ثنائية ضدية، ثنائية الموت والعدم، والسلام والأمن، الطهارة والاستسلام " فهو رمز الطهارة والنقاء ورمز للحداد أيضا"³ في حين يدل الأزرق على ثنائية ضدية أيضا: الهدوء، والتشاؤم.

في حالة الهدوء يشير إلى التميز والشعور بالمسؤولية والإيمان برسالة يجب تأديتها وهذا ما تعمل من أجله "الأنا" الناطقة في تحولات فاجعة الماء التي تنتشد بيئة سليمة منظمة خالية من أي اضطراب أو فساد، وفي حالة التشاؤم تبدي قلقا تجاه الوضع البيئي والسياسي والاجتماعي، ويغدو "الآخر" مدانا لعدم حسن تصرفه وتسييره واستثماره لكل العناصر التي تجعل من الوطن سيدا وقائما.

إن فاجعة "الأنا" الناطقة تجسد فاجعة "الأنا" "الآخر" من خلال "الأنا" الذي يمتد في الأزرق ويشق وسطه ليسرق الأنظار منه، ليؤكد رمزيته المتعلقة "بالقتل والدم والتكيل، والافتتان والضعينة والقوة والرغبة البدائية في التملك"⁴ وهو دليل المشقة والشدة والخطر واشتعال الحروب، ودليل التطرف والجنوح عن ميزان العقل

² د. عبد المالك مرتاض: تحليل الخطاب السردي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995، ص 272

³ ينظر أحمد عمر مختار: اللغة واللون، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1997، ص164، 163.

⁴ نفسه ص 212

وفي وجهه "الآخر" فهو الخجل والصحة والعافية، لكن تبقى دلالة السلب والظلامية هي الطاغية عليه ونذير التوقف في الإشارات الحضارية لعصرنا اليوم وباعث للإحساس بالألم لارتباطه في عمقنا بلون الفجيرة والدم.

وصورة "الآخر" تتجلى من خلاله في "التتار" الذين دمروا حضارة ما كان لتدمر وفي الشيوعية التي حصدت ملايين البشر وفي الإمبريالية الحديثة بمختلف أشكالها الاستدمارية التي يجسدها الغرب في ثوبه الديني الخفي. هذه الحالات تجسدها حركة الألوان في إيقاعات المد والجزر، ويؤطرها أفق التوقع لفاجعة الماء، ويؤكددها عمق التحول، ويكشفها الضوء المبرز للصورة والحركة.

وطبيعي جدا أن يكون للأسود حضور غير معطن عنه و بدونه لا يمكن للآخر أن يتجلى فله الفضل كل الفضل في تجسيد الفاجعة لأنه المانح للظلال وليس هو الحزن والألم والموت أو "السيطرة"⁵ والنفوذ كما هو الحال عند حاخامات اليهود الذين اتخذوه رمزا ولونا لثيابهم كدليل للتألق والسيطرة التامة على الأتباع وهو رمز الشعوذة والتنجيم وارتبط بشعور الكراهية والرفض "والخيانة"⁶ وهو رمز اللعنة وسوء الحظ ونذير الشؤم، وما ذهب "الغراب" ضحية اللون الأسود عند بعض الأقوام كالعرب إلا لسواد لونه.

والأسود يحمل ثنائية ضدية: يجسد الموت ورفيق له. ولذلك سمي "الطاعون" بالبوء الأسود لفتكه بالبشر.

وفي صورته الأخرى رمزا للنماء والخصوبة، والفصاحة عند انطلاق القلم ولولاه لما كان للأبيض وجود به يقرأ وبفضله تحل وتؤول دلالاته. والأسود لون المسك ولولاه لما انباع غالبا⁷.

صرح الأحمر من ركنه البسيط بوجوده، وسهولة سيطرته على الصورة فأبرز الصراع بين طرفي اللوحة (الأبيض والأحمر) كأنه صراع بين اليمين واليسار، يسار معتدل متوازن يمثل الخلاص ويمين متطرف دموي يهدف للسيطرة على كل اللوحة التي قد ترمز إلى الوطن الذي تتجاذبه صراعات شتى، التيارات والأفكار والولاءات باعتبار أن حدود الوطن جغرافيا وسياسيا وثقافيا تستدعي وجود

⁵ نفسه ص 196

⁶ نفسه ص 202

⁷ من بيت شعرا لمجنون ليلي : يقولون سوداء الجبين ذميمة ولولا سواد المسك ما انباع غالبا

هذه التيارات، هو صراع بين الحضارة واللاحضارة، بين الأصيل والدخيل، وقد عتمت الريشة هذا الطرح لشدة ما أوضحت حتى أصبحنا أمام احتمالات لا متناهية فمن هما طرفا الصراع وما هو الخلاص في نظر الكاتب؟

لقد حاول الكاتب من خلال تلك الصراعات البادية على سطح الغلاف تمرير فكرة الصراع بين النور والظلام، الليل والنهار (الأسود والأبيض)، الأمل والموت (الأحمر والأزرق الفاتح) وبين اليأس والأمل والوحشية والسلام (الأحمر والأبيض)، صور لنا مشاهد الصراع الإنساني منذ الأزل.

حملت الألوان معاني متعددة حاولنا قراءتها والإمساك بزمامها، إلا أنها تظل فضاءات لا منتهية القراءة تختلف انطباعاتها من منطلق لآخر مما يفتح أفق الدلالة بشكل أوسع وإسقاط نفسيات مغايرة على الألوان نفسها للمس معان متعددة، غير أننا اعتمدنا على استقبالها استقبالا اجتماعيا انطلاقا من أن أفراد أي مجتمع يشتركون في عموميات الإحساس بالألوان والتعبير بها تعبيرا يتغير مع الزمن "ومنه فدلالات الألوان تساهم في نقل الدلالات الخفية والأبعاد المستمرة في النفس البشرية"⁸.

3- عنوان الأثر (الكتاب)

بالنسبة للكاتب هو عبارة عن إنجاز عملية معقدة -عند بعض- من الصعوبة الظفر بها "لأنه البهو الذي ندلف منه إلى النص"⁹ وبه نقترّب من المضامين ونلمس حركة المعاني وهو بمثابة استدعاء للقارئ إن شئت للآخر لمحاورته وإذا كان النص موضوع القراءة فإن العنوان هو مدار المناقشات كما هو معروف ولعنوان "تحولات فاجعة الماء" جرس نفسي تطفح به "الأنا" أكثر منه لأن هذه التحولات وهذه الفاجعة، هي من فعل فاعل "الآخر" المنتمي للذات والذي يمثل السلطة في البلد أو "الآخر" الذي يمثل الضد الحقيقي للأنا والمجسد للغرب بكل المفاهيم المتضمنة لكلمة غرب.

أ- تحولات: إن التحول هو خروج الشيء عن حالته إلى حالة أخرى وعند الحكماء هي الحركة في الكيفية أي الانتقال من كيفية إلى كيفية أخرى تدريجيا¹⁰.

⁸ عبد الفتاح نافع: (جماليات اللون في شعر ابن المعتز)، مجلة التواصل، عنابة، عدد 04/06/1999، ص 125.

⁹ د. علي جعفر العلاق: الشعر والتلقي، دراسة نقدية، دار الشروق، عمان، الأردن، 1997، ص 173

¹⁰ المعلم بطرس البستاني: محيط المحيط، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، مادة: حال، ص 207.

والتحول يحمل دلالة الانقلاب أو التطور ويوحى بالرفض أيضا، وهذا ما تريد "الأنا" الإفصاح عنه دون طرح السؤال: أَللأسوء أم للأحسن؟ في اتجاه الانحدار أو نحو الرفعة؟ فالتحولات التي تنتشدها "الأنا" تحمل في طياتها استمرارية التغيير بمعانيه الممكنة المفيدة إيجابيا لا سلبا، والتحول منطقيا خاصية بشرية ترتبط بالنفس كما تحمل إichاءات تعددية التغيير، فالتحول ليس واحدا بل تعدد إلى غيره من النطاقات.

ب- **فاجعة:** " مؤنث فاجع يقال نزلت به فاجعة أي رزية، ج: فواجع"¹¹، والفاجعة قمة الألم والفرع وجاءت على وزن " فاعلة " بمعنى وجوب التأثير وفاعلية البصمة، فالفجيرة لا تكون إلا بفقد حبيب، فما الذي أحدثت الفاجعة فُقدته: إنسان، أرض، أو إحساس بالأمان؟

ت- **الماء:** جسم رقيق مائع يشرب، به حياة كل نام وهو بعد الهواء لبقاء البدن بدونه أكثر من بقاء الهواء، وسُمعَ اسقني "ما" بالقصر وتصغيره " مؤيّه "، وماء الوجه وما الشباب وماء الشعر وغيرها رونقه ونضارته. والماء المطلق هو الذي بقي على أصل خلقته ولم يخالطه نجاسة ولم يغلب عليه شيء ظاهر¹².

الماء هذا السائل الشفاف الذي يرادف معنى الحياة، البعث، التجدد فقد قدس في الديانات القديمة واعتبر أساسا للخلق فهو آلهة مقدسة عند اليونان، واعتبر الفراعنة النيل إلهًا للعطاء واعتد به كبداية للخلق وأن أصل الإنسان من ماء وفي القرآن الكريم « وجعلنا من الماء كل شيء حي »¹³. وقوله: « ألم نخلقكم من ماء مهين »¹⁴.

إن التركيبة الملتحمة تقلب كل الاحتمالات فـ " تحولات فاجعة الماء " تضعنا أمام تحول من نوع خاص، تحول المياه تحولا غير مألوف أحدث خطأ فولد فاجعة في الأنفس وفي الأرض، وقد يكون بالتجمد والنزول إلى درجة الصفر ومن ثم انقراض النبات والحيوان وكل أشكال الحياة، زلزال بيئي، وقد يكون بالجفاف والندرة مما يستدعي السعي في طلبه بشتى الوسائل وإن تطلب القتال وسيل الدماء حفاظا

¹¹ المعلم بطرس البستاني: محيط المحيط، مادة: فجع، ص 678.

¹² المعلم بطرس : محيط المحيط، مادة: موه، ص 870.

¹³ سورة الأنبياء: الآية 30.

¹⁴ سورة المرسلات: الآية 20

على الحياة، أو تحولا إلى درجة الغليان فيكون إعداما يستحضر جهنم في صورة مائعة يصعب تحديدها، أو أن هذا التحول هو تبديل الماء من باعث للحياة إلى مدمر لها وهنا تتجسد إمكانية التناص مع طوفان نوح - عليه السلام - الذي جاء نصرا له في مقابل مجازاة الكافرين بالإغراق وتطهير الأرض منهم: (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين)¹⁵ فهل يلعب الماء دور العقاب والتطهير أم يقوم بكل المتضادات من تغيير وثورة وعقاب وتطهير وبعث للحياة من جديد مع استمرارية التجدد والانبعاث أو التهديد ومن ثم التأهب والحذر الدائم.

إن هذا العنوان الرئيس مأخوذ من عنوان لنثرية من الكتاب، فهل في اختياره توجيه للقارئ إلى الأثر البؤرة وتحديد محور الرؤية ومن ثم تجسد حلقة وصل بين ما قبل التحول وما بعده، غير أن خبايا الرؤى ستتكشف في طيات النثرية الأخرى، فهل يمثل العنوان الرئيس نقطة انطلاق أم نقطة وصول ونهاية، تصاعدية الإبداع أم تنازلية؟ وهل العناوين الفرعية هي تنشيط للعنوان الرئيس أم أن لكل منها موقفه وهدفه ولا يجمع بينها سوى وجودها في كتاب واحد؟ وهل سيلبي هذا العنوان أفق توقع القارئ؟ أم أنه سيخالف كل التوقعات؟

4- حضور "الآخر" (الإهداءات)

نجدته يتزامن مع وجود "الأنا" الناطقة المبدعة فتكاد لا تتلفظ إلا و"الآخر" حاضرا إما في شكل إهداء أو في شكل مقدمة وهذا "الآخر" في الغالب ينتمي إلى عالم الكتابة والإبداع بغض النظر عن الاتفاق والاختلاف في المواقف والمبادئ وكأنه نوع من التضامن بين "الأنا" و"الآخر" لسبب هو أن الهدف واحد، ربما يكون تغيير العالم من قبل المبدعين، أما كيفية التغيير فلكل طريقته ومنهجه.

1- **حيدر حيدر**¹⁶: الذي زعزع العالم بروايته وزعزع قدسية الثورة الجزائرية وما لها من وقار، كاشفا لحقائق الحياة الاجتماعية التي لا يعرفها ربما أهل البيت، وهو ما يتضمن انحرافا عن جادة الصواب الذي رسمته هذه الثورة مما يجعلنا

¹⁵ سورة هود: الآية 44.

¹⁶ - حيدر حيدر: روايتي سوري عاش في عناية مدة من الزمن عمل خلالها معلما ثم كتب رواية "أعشاب البحر" التي أثارت ضجة لمساسها بالدين. وأصدر الأزهر فتوى بمنعها من التداول. وفيها يتعرض لبعض القضايا الاجتماعية التي تمس المجتمع الجزائري والعنابي خصوصا وعممها في حين لا يمكن أخذها كمثال

نعتبر مغزى هذا الإهداء ذي اتجاهين لكل منهما دلالاته المستقلة عن "الآخر" ، وهي: هل ينطوي هذا على تأييد في الرؤية ومسايرة في الطرح من أن الثورة ومبادئها قد انحرقت مما يوجب مراجعة صريحة للذات، قصد الإصلاح والرجوع إلى الطريق الصحيح؟ أم أنه يوجه دعوة إلى الحوار على مستوى الإبداع كأرقى أشكال التواصل مع "الآخر" عن طريق الأفكار بما يستوجب كفاءة عالية في الطرح وحرية لا حدود لها في المعالجة بعيدا عن كل أشكال المجاملة .

2- كاتب ياسين¹⁷: هذا الأديب الجزائري الفذ الذي تعامل مع اللغة على أنها وسيلة للتعبير ولم يجد حرجا في التعبير بلغة المستعمر، بل لقد جعلها سلاحا يرد به عليه، لأنه نظر إليها على أنها أداة تواصل وليس حق لأحد في امتلاكها واحتكارها. وقد ظل يردد بأن اللغة يملكها من يهواها لا من يعبدها.

هذا "الآخر" المبدع يشترك مع "الأنا" صاحب الديوان في عالمي الإبداع والمكان، فالأول هو ذلك النهر المتدفق الرائق الذي يحي موات المشاعر والأحاسيس فتخضر وتتبت كل جميل. إنه الفضاء الذي تنطلق فيه الأفكار محلقة لا تخشى فيه الصدام بل وترفرف بأجنحتها فتضاهي الأطيوار في إشاعة الدفء والسلام في غير كلال ولا ملل ولا توقف، لأن توقفها انتهاء للحياة، إنه عالم الانطلاق بلا رقيب ولا حسيب وصولا إلى الخلود رغم فناء الجسد.

ونقرأ أيضا من هذا الحضور رفض الإقصاء والتهميش ومقاومتها وقبول "الآخر" وتعدد الثقافات في البلد الواحد.

3- جروة علاوة وهبي¹⁸: يلتقي مع المبدع في العوالم الثلاث:

عالم الروح الذي تمثله الصداقة التي تتولد من رحم الإبداع لتكون عملا روحيا خالصا لا تشوبه شوائب تكدر صفوه فيولد ساميا عما ألفه المحتكمون إلى المصالح المغلفة بغلاف الصداقة.

عالم الإبداع، الذي يتميز بالفاعلية والإنتاج فيهبز هدأة الواقع مناشدا الكمال والخلود.

¹ كاتب ياسين: من مواليد 1929/05/06 بقسنطينة، انقطع عن الكتاب ليلتحق بالمدرسة الفرنسية، شارك في مظاهرات الثامن ماي 1945 وسجن وعمره لا يتجاوز 16 سنة، بعدها بعام نشر مجموعته الشعرية الأولى "مناجاة" ثم "أشعار الجزائر المضطهدة" 1948، "تجمة" (رواية 1956) وغيرها، تقلد منصب مدير المسرح بسبدي بلعباس قبل وفاته في 1989/10/18 بفرنسا. (www.aljahidhia. ass.dz/ encyclop/mileffat

¹⁸ جروة علاوة وهبي: من مواليد 1944 بالميلية، شاعر، روائي، وصحفي. من أهم أعماله: "الوقوف بباب القنطرة" 1985، "باب الريح" (رواية 1980)، "مذكرات منزلة" 1984.

عالم المكان والزمان ومافية من ذكريات: الجزائر عموما وعنابة خصوصا. فـ " بونة" ملتقى المحبين ومأوى العاشقين وملهمة المبدعين، فمنها يستمدون روح إبداعهم إذ تستفز مشاعرهم فيبدو سحرها فاضحا ما يضمرون في دواخلهم كما ينكشف أمر المحب إذا يمّم وجهه شطر حي حبيبته وما ذاك إلا لمن عرف سر الهوى:
أخفي الهوى وهو لا يخفى على أحد إني لمستتر في غير مستتر*
فما بال من كثر عشاقها إلا أن يتسابقوا يتوددون بأجود ما لديهم عليهم يجدون الحظوة لديها .

وقد وصف "الأنا" "الآخر" بأنه "وحيد في الصهد" فهل الكتابة نار يخشى من أن تحرق المتعاملين معها، أم أنها هموم الصحافة هي التي جعلته يمتاز بهذا الوصف.
4- الطاهر جاووت¹⁹: يلتقي مع المبدع في عالمي الإبداع والوطن، وهو صاحب المقولة الشهيرة حينما كانت الكلمة تقتل وتحيي: "تكتب تموت، تسكت تموت، أمالا*"
اكتب أو موت" ويختلف عنه في لغة التعبير فالمهدى إليه يكتب بالفرنسية وهذا نوع من التضامن ولم الشمل بين الكتاب بالعربية والكتاب بالفرنسية ورفض للعنف الذي بلغ درجة التقتيل هذا من جهة، ومن جهة ثانية رفض لإلغاء "الآخر" بسبب فكره وتوجهه بل يجب أن يكون الحوار هو البديل الأوضح عن كل أشكال العنف وبالتالي استنكار اغتيال هذا الكاتب المبدع. وهو أول صحفي يغتال. إذن فحضور الطاهر جاووت هو حضور للآخر المتخفي وراء العنف والإجرام المنبوذ من طرف المبدع وكل محب للحرية والإنسانية والسلام والأمان.

5- بختي بن عودة²⁰:

ينتقاسم مع المبدع العوالم الآتية :

* عباس بن الأحنف، cd موسوعة الشعر العربي.

¹⁹ من مواليد 1954/01/11 بأزفون (تيزي وزو) متحصل على شهادة جامعية في الرياضيات والاتصال، صحفي. تعرض لمحاولة اغتيال يوم 1993/05/26 وتوفي على إثرها يوم 1993/06/02. من مؤلفاته - بالفرنسية- انقلاب شاتك (شعر 1975)، العصفور المعدني (شعر 1982)، منزوع الملكية (رواية 1984)، العسس (رواية 1991).

* = أمالا: كلمة جزائرية تعني: إذن.

²⁰ بختي بن عودة: من مواليد 1961 بمعسكر، أستاذ جامعي، ناقد وشاعر، جمعت مقالاته بعد وفاته وطُبعت بعنوان "رنين الحداثة"

1999، اغتيل في 1995/05/22 - ينظر الموقع: www. Aljahidhia.ass.dz/encyclp/mileffat

عالم الإبداع: وهو عالم فسيح الأرجاء لا تحده حدود، وهو في ثناياه تتأسس علاقات سامية تترفع عن كل خلافات الواقع لترسم المثال للتعايش مع الكل ولا يستثنى أحد بسبب آرائه والحوار كفيل بأن يوحد الرؤى ويفسح مجالات مشتركة.

عالم المكان: يتواجد في الوطن الأم - الجزائر - لتكون الأوطان الصغرى روافد من الأم، مما يستدعي الاشتراك بالارتقاء بهذا الوطن عن نزعات شخصية أو جهوية بل والدفاع عنه ليعيش فيه الجميع هرباً من نار الفرقة وعذابات التناحر، إنه الراية التي يذوب فيها الجميع، والبحر الذي تصب فيه الأفكار راسمة بتوحيدها لوحة فريدة من إهمال "الذات" لأجل الكل. فالوطن مهد الإبداع ومنطلقه. وإذا تألم الوطن فالأوجاع كلها تنبثق منه وتدفع "الذات" إلى التحرر.

6- ذو النون الأترقي: ²¹

يشترك مع "الأنا" (المبدع) في الإبداع وتقاسم معها فضاء المكان لمدة أربع سنوات، فهو أديب عراقي وهو أحد أنصار الشكل القديم والمقدس له مما أوجد نافذة للحوار حول ضرورة مسايرة التطورات الطارئة وعدم العيش في الماضي - وهو ما يظهر في داخل النثيرة "فتون الماء" - غير أن هذا الاختلاف لا يجعل "الأخر" منبوذاً إذ أن الإبداع يستوعب الجميع .

أما العالم الثاني فهو عنابة التي عاش فيها المهدي إليه فترة من الزمن "ذكرى للسنوات التي عشناها في عنابة" ، وهي الوطن الثاني بعد العراق، الوطن الذي يحتضن الجميع ويضمهم ضمة الأم الرؤوم ليجدوا فيه عوضاً عما فقدوا في الوطن الأول ولا يلفهم شبح الغربة بعيداً عنه.

7- محمد طالب البوسطجي: ²²

لاحظ كيف يتكرر عالماً "الإبداع والمكان" في كل هذه العلاقات التي جمعت المبدع مع "البوسطجي" على غرار ذي النون إذ أنه عالم تلتقي فيه الأفكار ويوحى

²¹ ذو النون الأترقي: شاعر عراقي قضى أربع سنوات في عنابة. -حوار: مجلة البيان، رابطة الأدب في الكويت ع366، يناير 2001، ص85.

²² محمد طالب البوسطجي: شاعر عراقي من البصرة جاء إلى الجزائر واستقر بالطاهير ولاية جيجل واشتغل بالتعليم الثانوي، اغتيل في أكتوبر 1994 بالطاهير، له ديوان "التسول في ارتفاع النهار" - ينظر ديوان "تحولات فاجعة الماء"، ص88.

بالتوحيد على مستوى الرؤى لتنتفتح آفاق على الواقع ومشكلاته، إنها الانشغالات المشتركة والهموم المؤرقة للارتقاء بالإنسان وكرامته بعيدا عن كل المزايدات .
أما العالم الثاني فهو المكان - الوطن - وهو الذي فر من لهيب الفرقة وتكميم الأفواه مختارا الغربية أو بمعنى آخر الوطن البديل الذي ينطلق فيه بحرية لا يخشى رقبيا غير أنه لم يجد فيه مبتغاه إذ أنه اغتيل من حيث طلب الحياة .

وتتويجا لهذه الإهداءات نخلص إلى أن العوالم الثلاث حاضرة في جميعها إذ أن كلا منها تمهد للأخرى فمجالها هو الروح إذ تتوحد فيها ("الأنا" مع "الآخر") ثم تفيض أجواء فسيحة لتخلق فيها هذه الأشخاص منعتقة من كل قيد، حرة من عين الرقيب ولتتحدث في كل شأن من الشؤون بحرية حقيقية.

المقدمات

في المقدمات تتجلى صورة "الآخر" الذي يمثل حضارة الغرب بتناقضاتها الأيديولوجية والاقتصادية حضارة تتدعي الانتصار للإنسانية وتأخذ كل ما عند الإنسانية من خيرات وثروات وتستعبد بها بكلمتي الديمقراطية وحقوق الإنسان.
إن هذا الحضور لا يمثل هذا الصراع الحضاري القائم من أجل الأديان، والحضارة المدنية المبنية أساسا على الماديات والمتجاهلة للروحانيات إنما هو حضور للذات من خلال "الآخر" المبدع الذي يتقاسمها هموم الكتابة وأوجاع الألم الإبداعي. فهم يشتركون جميعا في الكتابة مع اختلافهم في اللغات والرؤى، غير أن ثمة مواضيع عديدة تجعلهم يتوحدون.

كم من أديب أعاد نصوص "الآخر" أو استحضرها في أعماله من خلال إيقاعاتها أو صورها أو معجمها اللغوي أو حتى أفكارها التي بنيت عليها تبعاً لوعي كل كاتب بسنن الإبداع.

— يرى " بوشكين" * أن الريح هي التي تغير وجه الماء الراكد وتدفعه إلى التطهير من كل ما علق به، إنها الدعوة الصريحة للتغيير، والثورة على ما اكتسى صفة القدسية فصار قيذا يحد من الانطلاق، إنها العاصفة وهي رمز الحرية لأنها تفرض على الحبس أن يتحرر وينطلق معها دون قيد. فهل يرى عبد الحميد شكيل

* ألكسندر بوشكين: (1837-1799) شاعر روسي اشتهر بأشعاره القصصية الطويلة، من أشهر أعماله " يفجينى أونيجين" الفارس النحاسي" و"ابنة الأمر" و"دوبروفسكي".توفي إثر مبارزة بالسيف

ما يرى بوشكين؟ وهل وجد في الريح ما يغير فاجعته؟ أم أنه ينذر بالفاجعة ويحذر من حدوثها؟ وإذا حدثت "فتسونامي" تكفي حادتها الإجابة عن كل شيء! أم أن الماء هو الذي يَفْجَعُ و يُفْجَعُ؟! "أين أنت أيتها العاصفة، رمز الحرية؟ لتتهي، لتتفجري على المياه الحبيسة السجينة؟ وعليه نستشف أن "الأنا" تتوحد مع "الآخر" الغربي في نشدانها التغير والتطهير من خلال تحولات الماء وانفجاراتها.

أما "سان جون بيرس"²³ فهو الداعي إلى التعايش بسلام فالعالم يحوي الجميع ولا يضيق بأحد إذا اتسعت القلوب، وما دام الماء هو عنصر الحياة فلماذا لا يشملنا جميعا في أمن وطمأنينة. هذه خلاصة تجربة حياة كاملة لشخصية عانت من النازية ما نعانیه اليوم في العالم الثالث من همجية الإمبريالية المجسدة في "بليز وآل بوش"، ومن يحيط بهم من "لي فو كون"^{*}

أما استحضار "الأنا" لـ "الآخر" المميز "إدوار الخراط" فلأنه يشترك معها في القلق الإبداعي والتمرد وفي الاتجاه الأدبي وربما الفكري أيضا لا الديني. هو نوع من الاعتراف له بما ينتجه وما ينشره. وهذا يعد نوعا من الاستدعاء للآخر البارز والفاعل في ذات الوقت سواء كان معاصرا أو تراثيا في الأعمال الأدبية والفنية. فمن "خلاله يعبر عن أبعاد من تجربته بشتى جوانبها"²⁴

وفي حضور "إدوار" في المقدمات حضور "الحلاج"²⁵ رمز الطول والتوحد، هذا الرمز الصوفي الذي قدم روحه فداء لمبادئه ومعتقده. هو نوع من إنها الرغبة في اقتحام المجهول حتى لا يبقى وجود للعمته ونوع من الإنذار والرفض من قبل الكاتب. "وهو ثورة في بعدها الروحي المجسم لانقفاضة الكاتب على الجسدي والأرضي توقا إلى القيم الفاضلة من حق وخير وحب وعدل وجمال فالثائر المتصوف لا يبغي من ثورته ملء بطنه وقتل جوعه وإنما يتوق إلى شحن الروح

²³ سان جون بيرس: (1887-1975) اسم مستعار للكاتب والدبلوماسي الفرنسي " ألكسس ليجر" حائز على جائزة نوبل للآداب لعام 1960، عمل سكرتيرا عاما لوزارة الخارجية الفرنسية تحت اسمه المستعار وبعد احتلال ألمانيا لفرنسا لجأ إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث ظهرت هويته الحقيقية ونظم: " المنفى"، " الرياح"...

^{*} - كي لا نترجمها إلى صقور لأن الصقور أنبل من أن تعتدي أو تهاجم وهي شبعانة. فالأجدر أن نترجم المهابيل الأغبياء
²⁴ د.علي عشيري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، نصر-القااهرة، 1997، ص 105.

²⁵ الحلاج: واحد من رموز الصوفية ودعاة التوحد في الذات الإلهية، قتل وصلب لرفضه الرجوع عن أفكاره.

بالفضيلة وإشاعتها في الناس حتى تكون هاديا لهم في طريق الحياة الطويل ، ولكي تظل الثورة مجرد حلم لأبد من قوة ترعى ذلك الحلم وتحوله إلى واقع معيش²⁶.
من خلال هذه المقدمات يمكن أن نضع حوصلة مفادها: دعوة للتغيير ونفي القدسية عن أشياء من فعلنا، على أن لا يكون الاختلاف في الرؤى مجلبة للإقصاء والإلغاء بل أن يكون ثراء - يخدم التوحد لخوض غمار المستقبل بشجاعة وحرية.

عناوين النثرات

"الآخر" المحذوف:

إن التعجب يصبح القاعدة في عناوين النثرات²⁷، فهل يعكس حضورها عدم القدرة على التصريح بالمحذوف، أم أنه الإدراك التام للوضع وتعجب من التعجب الذي يلف الآخرين مما يعني الوعي الكامل بكل الحثيات.
ويمكن إرجاع التعجب أيضا إلى حالة من التيه بين ما كان وما هو كائن وما ينبغي أن يكون وهذا ما يجرنا إلى التساؤل عما تتوب عنه هذه العلامات، عن نفس المعطي الغائب* أو عن "بونة" أو عن الوطن الرمز المحتضن للديوان مكانا وزمانا وهو ما يؤدي الحذف بوصفه استمرارا لتعدد التأويلات، والمعوض بالنغم الذي يفرضه التعجب والذي يوحي بالحلم أو الدال عن الحنين.

تجليات "الأنا" وتمظهر "الآخر" :

1- الشجر المقاوم

الشجر كل ما سما بنفسه، دقّ أو جلّ قاوم الشتاء أو عجز عنه²⁸. والمقاوم هو المضاد وال ضد²⁹.

الشجر في الطبيعة هادئ يبدو أنه لا يقاوم لكن له وظيفة المقاومة وهي مكتسبة تتمثل في الدفاع عن نفسه كأن تكون له أشواك أو رائحة تجعل الناس يبتعدون عنه أو أن مقاومته تتمثل في الصبر ضد الجفاف والتصحر كالنخيل مثلا، وهذا المقاوم ما هو إلا "الذات" "الأنا".

²⁶ د أحمد الوديني جدلية العقم و الخصوبة في مجموعة الوحام. ديوان الميداني بن صالح. ط2. الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم تونس. ص22.

²⁷ -تراجع العناوين في ديوان تحولات فاجعة الماء.

* -المعطي الغائب: هنا المبدع باعتباره مصدر الإبداع.

²⁸ ابن منظور، لسان العرب، المجلد الرابع، مادة: ش ج ر، ص 394.

²⁹ حنا غالب، كنز اللغة العربية، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 2003، ص 464.

إن الوجود وعدمه يتطلب المقاومة ضد التلاشي والسقوط، ولكن من هو هذا المقاوم؟ إن لم تكن "الذات" التي تسمو بنفسها، فهي "الشجر المقاوم".
لا شك أن صيغة اسم الفاعل "المقاوم" تجعل الزمن مفتوحاً لتصطبغ صفة المقاومة بالديمومة والاستمرار مما يجعل هذا الشجر مميزاً بميزة الأصالة والتجذر والخلود، إذ أن مقاومته المستمرة مكنته من الوجود الدائم وهنا تحضر قيمة الوجود بالصبر والقوة والوجود بالفعل، إذ لا يكفي أن تكون "الأنا" موجودة بل كيف تثبت أنها ذلك؟

أما عدوها الأبدي فهو "الآخر" "العاصفة" التي تمتحن رسوخها في كل مرة فتفرض عليها المقاومة حتى تثبت أصالتها وتمسكها بالحياة فانظر كيف تخاطب "الذات" "ذاتها":

« لو أنك خاطبت الموج، أربدت في وجه العاصفة،
وشاكت الطير المجنح بالصبابة،
وحدقت في وجه القصيد المكرس لانهيأ الأسئلة!
لو أنك غامرت، وصرخت بأعلى صوت،
قلت: بأن الوطن المسكون بالأحلام قد شد الوثاق،
وتهياً قصد المراوحة، بين احتمالات الفجيعة
والسقوط!!»³⁰

إنه الوطن المتجذر في "الذات" من يعلن بداية المقاومة التي أجبرته عليها العاصفة. وعندما تسمو "الأنا" وتتعالى تصير لوامة فتصيح، لو قلت، لو أجهرت، لكنك:

« ...، لو أنك قلت، لو أنك أجهرت لما تصدع سور
البلاغة العربية، ولما انفرط عقد الندامي والرفاق،
لكنك فضلت المخمل، وزجاجات الخمر المعتق،
نسيت وهج القصائد التي خبأتها في شقوق الذاكرة..»³¹

حين تذود "الذات" عن المبادئ تصير رمزا للمقاومة والعطاء، ترفض الإجتثاث وتخوض الصراع، وتتحول من اللائمة إلى الأمرة:

³⁰ عبد الحميد شكيل، تحولات فاجعة الماء، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، ط1، 2002، ص 6.

³¹ عبد الحميد شكيل، الديوان، ص 7.

* جيرار جينيت، عتبات. نقلا عن محمد بنيس، الشعر العربي بنياته وإبدالاته: 3، ط3، 2001، ص191.

« هل نسيت هذا النشيد المجلجل، وكيف كنا نرده في
ضراعة؟! أم تراك صرت تعشق الجاز، وتهوى
راقصات الفلامينكو، وأنت الذي كنت تردد: إن للزرنة
سحرا لا يقاوم!...؟!»³²

« أعد له اللون، والزهو المكابر، كل شيء قد يصير
رهينة، قد يباع، إلا الماء، والشجر المقاوم..»³³

وهنا تتجسد الثنائية (اللائمة- الأمرة) من خلال "الأنا" التي تتلفظ بثنائية ثانية
(الوطن - القصيدة) فتتوحد في مفرزة واحدة شأنها المقاومة ضد صراع ينتهي إلى:
الافتلاع فالسقوط فالفاجعة أو الثبات فالرسوخ فالوجود.

2- طقوس غير متزنة

من خلال كلمة "طقوس" يحضر "الآخر" المائل في الحضارات الوثنية أو
الديانات السماوية التي حرفت، أو "الآخر" المنبثق من "الأنا" والمتمرد عليها وعلى
"النحن".

لعل صيغة الجمع التي جاء بها تؤكد معنى التعدد والتنوع مما يفرض الزحام
في بعض الحالات التي تجر إلى الخروج من الحالة الطبيعية إلى الشذوذ، فيحضر
التحول بانحرافه عن نطاق الرتابة، حيث كان مستقرا متوازنا، فاهتز وغادره
الانضباط فجاءت نتائجه مضطربة فصارت الطقوس المتزنة رغبة تشتهيها
"الأنا" باعتبارها الحالة الطبيعية التي ألفتها.

حين تترفع "الأنا" وتسمو إلى "النحن" تشتهي نشر هذا الوطن في حلة جديدة
وموحدة فلا تبقى لائمة وإنما تصير متشبهة فتتفعل

« نشتهي أن ندخل هذا الوطن في تلافيف النسغ، ينباع

الطفولة، كيما نعيد نشره طبعة منقحة قادمة!

نشتهي أن نوحده النهر، الصخر، الشجر الطالع من ظلال

القلوب التي أورثتنا الفاجعة..»³⁴

³²4-5: عبد الحميد شكيل، تحولات فاجعة الماء ن، ص 9

³⁴ عبد الحميد شكيل، تحولات فاجعة الماء، ص 11.

إن الاختلال كان نتيجة اتباع الأهواء ومنه كان التمزق والتشردم وتعدد الاتجاهات الفكرية، إذ بعد ما كانت الأفكار بتنوعها تصب في مجرى واحد أصبحت شتاتاً مبعثراً، ورغم اللاتوازن تبقى الرغبة في لم الشمل وجمع أطراف البلاد وتوحيد المسيرة فنخطو خطوات الخروج من الفاجعة التي ينبغي أن تكون انطلاقة نحو طبعة ناصعة:

« نشتهي أن نمد الخطو الرشيق، الغليظ في وجه الطغاة،

الرعاة، الضالعين في فن التخابر، التغامز، تكريس

المقولات الفاجعة!»³⁵

هذا الوضع اللا متوازن جاء من "الآخر" - السلطة- الذي خالف ما كان، حيث أن حاملي بذور الشر يتموقعون في القمة، وينشرون التفارقة بطرق خفية لا تتكشف بها كل أوراق اللعبة وبث أصداء الفجيرة تثبيطا للهمم وتكريسا للتخاذل.

وكما تستلزم الطقوس أشياء ذات دلالة كالذبائح والملابس الخاصة والحركات الرمزية³⁶ فكذا استلزم هذا "الآخر" طقوس غير متزنة تضحيات وأضحيات دموية على البلاد حتى ارتوت تربتها وروع أمنها:

« نشتهي / لا نشتهي، لكننا نحب هذي البلاد التي

روعت، ونعشق كل شبر روته دماء: الضحايا،

الأضحيات، الأضاحي الرائعة!»³⁷

في ضدية الاشتهاء تكمن محبة هذه البلاد ومن ثم فلا مجال للتستر وكتمان الرغبة في الرجوع إلى الطقوس الماضية التي أصبحت مجرد أمنية يراد كبتها:

« نشتهي أن نشتهي لكننا ممنوعون من الشهوة والاشتهاء،

ومن كل قول يفك إيسار هذي البلاد، يسكنها الربوة

الساطعة..»³⁸

إن "الآخر" الذي يتخفى في العنوان لا يحضر بألفاظه في القصيدة إنما بدلالاته ومعانيه بما يؤكد سطوته.

³⁵ عبد الحميد شكيل، تحولات فاجعة الماء، ص 13.

³⁶ الموسوعة العربية العالمية، المجلد الخامس عشر، ص 633.

³⁷ عبد الحميد شكيل، تحولات فاجعة الماء، ص 13.

³⁸ عبد الحميد شكيل، تحولات فاجعة الماء، ص 13.

3- تحولات فاجعة الماء

هذا هو العنوان البؤرة في متن النثرات كله فهو الذي يتصدره ويعتلي عرش نثراته التي تحتل في الترتيب المقام الثالث عشر، مقام المحبة - لدى الشاعر - كما جاء في العنوان المصاحب، ليكون بؤرة تتجه نحو الأنظار ومحطة تلتقي عندها الأفكار وليجسد التحول غير المتوقع، وليمثل "سلطة النص وواجهته الإعلامية" ³⁹ ويعكس وجه "الأنا" المتسلطة على القارئ بما تمليه عليه من فيض إبداعي وقلق حضاري وتقلبه إلى عالم الفجاعة الذي أحدثه "الآخر" المتسلط بالنفوذ ومسك زمام الأمور، أو متسلط بما يملك من قوة مادية: "سلاح" و"فيتو" يؤهله لفعل أي شيء، كونه مهيمنا ووصيا على إصلاح العالم وفق فلسفته ودينه ومعتقداته الخاص.

إن الماء الذي تقمص في العناوين السابقة ثنائية (الوطن - القصيدة) يواصل بلورة ملامحه الجديدة التي سترسمها "الأنا" في القصيدة المتكونة من ست مقاطع تبدأ في كل مرة بلازمة "كان يأتي كل صباح" فمن هذا "الآخر" الذي يأتيه مع كل يوم جديد؟ أهو صديق أو حلم أم هو الوطن الذي تجتمع فيه كل المتناقضات؟ وطن يزور في شكل الحلم في صورة رؤيا مرصعة بالعقيق والكرز والجنار محاطا بالنور محفوا بالضوء ملفوفا بالعليق؟ أم هو استحضار لموقف التجلي الذي أدهش موسى عليه السلام؟ أو هول الانشطار الذي أذهل فرعون فأغرقه؟ الكل حاضر في النص إنه سمو "الذات" حالة ضيق الأمر عند الفاجعة فيتسع أمر الله كما اتسع لموسى عليه السلام.

إن استحضار "الآخر" الممثل في النبي موسى عليه السلام، هو حضور للرؤيا والحلم الشعري الذي يومض كالبرق فتتنشئ "الذات" وتتماهى ثم تتوحد أمام موقف التجلي، فتحتضن الشعر - بوصفه عالما للمثل والكمال - ويسيران في خط واحد تحفه الحياة والموت من كل جانب. كما كان الصراع بين الحق والباطل جلبة التقدم والتخلف، الكر والفر، حين اعترض موسى البحر فأدرك قومه الهلع والفرع، ولما انفلق تحول الهلع والفرع إلى فاجعة للآخر المتسلط، وكأن "الأنا" تدرك أن هول

³⁹ (د. علي جعفر العلق: الشعر والنقي، دراسة نقدية، دار الشروق، عمان، الأردن 1997 ص 173

الفاجعة في تحول نحو "الأخر" الذي أراد بالوطن السوء، كما أراد فرعون لموسى وأتباعه.

وعندما يسيطر عليها هاجس الإبداع ويوقعها في الشراك، تغدو مسحورة متبوعة مقهورة بلذة الفعل السحري الذي أحدثه هذا الهاجس الإبداعي.

« كان يأتي كل صباح،

محفوفا : بالضوء، والفوق، والأنحاء،

في عينيه اللوزيتين مشائل من حناء، وعصافير ترفل في

دفع الزعتر وعبير الماء!

ولما يتناسل شكل الماء:

يمشي بخطوات منتظمة،

يبتسم بغموض خاص،

يفجّع سر الجدول، هسيس الآه!

يضبط دقات قلبه،

يشد بلور ذاكرته،

كيما يوسع لمواكب النور والجلنار،⁴⁰»

وتغوص "الأنا" في عالمها فتستردل في سرد ما يغمرها من فيض روعي إثر

ارتقاء الروح إلى عالم الإبداع فتعطي للمعنى شكله الرائق! ولما يضيق بها الحال

تضيق فتحات الروح، فتردد بصوت ناري مفجوع:

للروح أن تلبس شكل الموت!

يأتي الوطن راغبا في البوح عن أمنية الحياة ؛ ليزرع في دم المبدع أحجية

الخد وحين يستفيق هذا الوطن من الأساطير المنسوجة حول ماضيه تحترق

الأعراف وتفق المفاهيم مرجعياتها وتنقلب الأشياء فلا تبقى للهور صوفيتهن

وطهارتهن:

« كان يأتيني كل صباح،

معتمرا شكل البوح،

⁴⁰ عبد الحميد شكيل، تحولات فاجعة الماء، ص 74.

مفتونا بالجسد العامر ببتلات الروح،

[...]

تتنشظى صوفية النساء الحور،⁴¹ «.

لقد طهر الماء النثيرة من رواسب الماضي الجامد كما طهر الوطن - رغم الفاجعة- من شعارات زائفة ليولد الصبح من رحم الحلقة ويتسع الأمر إذا اشتد الضيق كما لا يدرك الفرح إلا بعد الحزن لتكون هذه النثيرة بداية اكتمال للرؤى الممهدة للتغيير الواضح المعالم وذلك ما يدل عليه ترتيبها؛ فالرقم "13" بداية لاكتمال القمر في الأشهر القمرية* فيضفي على الليالي ضوءا يرسم طريق الأمل.

تغيب صيغة العنوان الذي يجمع بين "الأنا" و"الآخر" مكتملة داخل القصيدة، بينما تحضر "فاجعة" مرة واحدة بصيغة اسم المفعول:

« كان يأتيني كل صباح،

مفجوعا بالفجر والعتمات،⁴² «.

ويحضر الماء الذي أحدث الثورة والهول في جميع الأطراف فيحن للطرف الأول الممثل للأنا ويغرق "الآخر" الممثل للجبروت والطغيان .

© مخبر وحدة التكوين و البحث في نظريات القراءة و مناهجها.
جامعة محمد خيذر بسكرة، الجزائر. 2009

⁴¹ عبد الحميد شكيل، تحولات فاجعة الماء، ص 74.

* - * هي الليالي البيض التي يصير فيها القمر بدرا تمهيدا لاكتمال استدارته وهي أيام 13، 14، 15 من كل شهر.

⁴² عبد الحميد شكيل، تحولات فاجعة الماء، ص 76.